تقديـــم

يتناول هذا الكتاب السنوي الثالث للهيئة اللبنانية للعلوم التربوية موضوع القيم والتعليم في إطاره الواسع ومن جوانب متعددة. فقد رأت هيئة التحرير اعتماد مفهوم عريض للقيم يشمل القيم الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية والعلمية، وكذلك ما يتعلق منها بالسلام والديمقراطية والبيئة وحقوق الإنسان. كما أن المساهمات التي تضمنها الكتاب جاءت متنوعة المنطلقات والمقاربات، فاعتمد بعضها التحليل التوثيقي أو "الدراسة" الميدانية، بينما تمثل البعض الآخر بتقارير عن تجارب عملية تمحورت حول التربية على القيم.

يبدأ الكتاب بمقالتين تعالج كل منهما موضوع القيم من منطلق ثقافي – سياسي عام، فتتناول الأولى موضوع الحداثة والعولمة والمجتمعات التقليدية وصراع القيم الناتج حولها، بينما تتناول الثانية مفهوم العيش المشترك بين الفئات اللبنانية وعلاقته بالقيم والمبادئ التي تقوم عليها الدول الحديثة. ومع أن أية من المقالتين لا توجه عناية مباشرة ومركزية إلى الشأن التربوي، فهما توفّران معاً تمهيداً عاماً لموضوع القيم يرسم الإطار للمقالات اللاحقة التي ترتكز على العلاقة بين القيم والتعليم.

يتناول عبد الله إبراهيم العلاقة بين الحداثة والعولمة والتحديات التي تواجه المجتمعات التقليدية ومنها مجتمعاتنا العربية، فيعتبر حداثة الغرب "أحد أهم تمخضات القرون الأربعة الأخيرة"، إذ استبدلت النظام التقليدي للقيم بنظام يقوم على التعاقد الاجتماعي وحرية الرأي والاعتقاد واحترام الذات الإنسانية ومؤسسات المجتمع المدني. غير أنه يسارع إلى التأكيد على أن نموذج الحداثة الغربية هذا إنما اختمر وانبثق من سياق ثقافي تاريخي لا يمكن تجريده منه ونقله إلى بيئة مجتمعية تقليدية كبيئتنا. ويرى إبراهيم في العولمة خطراً جديداً على مجتمعاتنا يسهم في تعميق الهوة بين مجتمعات الحداثة والمجتمعات التقليدية.

أما فارس ساسين فيتناول بالتحليل موضوع "العيش المشترك" الذي ورد في وثيقة الوفاق الوطني الصادرة عن مؤتمر الطائف الذي عقده النواب اللبنانيون عام ١٩٨٩ سعياً لإنهاء الحرب في لبنان. ويرى ساسين أن العيش المشترك يقوم على التوازن الدقيق بين الفئات التي يتكون منها المجتمع اللبناني. وبالرغم من صعوبته النظرية ومشاكله العملية، فانه يجسد تلاقي مجموعة من القيم، كاحترام الآخر، وحرية الجماعات، والمساواة. وعليه، يرى ساسين أن إدخال هذا المفهوم، بأبعاده التاريخية والدستورية والواقعية والمعيارية، في مناهج التعليم مسألة ضرورية رغم كونها بالغة الحساسية.

بعد هاتين المقالتين التمهيديتين، تعالج نجلاء حماده موضوع القيم المجتمعية من منظار تربوي وفي ضوء مقارنة تجريها بين القيم المعاصرة في العالم وفي لبنان، وهي تدعو إلى توخي الوضوح في تحديد القيم الملائمة لمجتمعنا انطلاقاً من المعتقدات الفاعلة فيه قبل وضع إستراتيجيات تربوية مستقبلية، و تؤكد "أهمية دراسة التوجهات الاجتماعية والفردية السائدة في لبنان ودراسة الأسلوب التطوري القادر على تصويبها بالشكل المطلوب قبل الاستعارة العمياء من مجتمعات قد تختلف عنا في قيمها وأهدافها وحاجاتها ونظرتها المستقبلية."

ويتقصى كل من علي أحمد الطراح و الغالي أحرشاو وجوه العلاقة بين القيم والتعليم. ففي بحثه عن دور التعليم في تطوير منظومة القيم في المجتمع الكويتي، يرى الطراح أن بوادر النهضة التعليمية في الكويت نشأت نتيجة جهود طوعية جسدت قيم الاعتماد على الذات والمبادرة الفردية والتكافل الاجتماعي واحترام العمل والإنجاز. غير أن ظهور النفط وقيام مجتمع الرفاه وتولي الدولة مسؤولية التعليم كاملة أدّت إلى انكفاء دور مؤسسات المجتمع المدني وإلى تعزيز منظومة قيم قوامها الثقافة الاستهلاكية والاعتماد على الدولة والعلاقة الأبوية بينها وبين أفراد المجتمع. أما الغالي أحرشاو فوجد أن التوافق الدراسي لدى المتعلم يرتبط بمستواه الثقافي–الاجتماعي وبمنظومة القيم التي يميل إليها. وإذ ميّز بين منظومتين للقيم، إحداهما تعتمد "النموذج الثقافي الحديث" المتمثل بقيم الحداثة والتنافسية والاستقلالية، والأخرى تعتمد "النموذج الثقافي

الأصيل" المتمثل بقيم الأصالة والتضامن والتبعية، توصل من خلال دراسة ميدانية مستفيضة إلى التثبت من أن أبناء الوسط الاقتصادي–الاجتماعي الأدنى يميلون إجمالاً إلى قيم الأصالة، بينما يميل أقرانهم من الوسط الأعلى إلى قيم الحداثة التي تسود المؤسسات التعليمية المعاصرة، وهم بالتالي يتمتعون بدرجة أعلى من التوافق الدراسي لأنهم أكثر انسجاماً مع أجواء المدرسة ومتطلباتها.

وتناولت فاديا حطيط موضوع القيم كما تتبدى في الكتب المدرسية فأجرت دراسة مقارنة لثلاثة كتب قراءة باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية ترمي إلى "استخلاص المواقف والمعتقدات والمثل والاهتمامات المتضمنة فيها والتي تشكل قاعدة لتكوين القيم لدى التلاميذ". وتبين لها بشكل عام أن الكتاب الأميركي يبدو موجهاً نحو التغيير الاجتماعي، بينما يميل الكتاب الفرنسي إلى قبول الأوضاع الاجتماعية وتثبيتها، في حين ينأى الكتاب العربي عن القضايا الاجتماعية المطروحة.

وكانت القيم الأخلاقية والعلمية والدينية مواضيع لعدد من المقالات التي تضمنها الكتاب، فعرض مصطفى خوجلي تطور علم الأخلاق الحيوية الحديث من خلال التسلسل الزمني لأهم الأحداث الطبية–الأخلاقية والقضايا الناتجة عنها، وشرح تجربة تعليم الأخلاق الطبية في الجامعة الأميركية في بيروت مع عرض لنتائج بحث عن مفاهيم الطلاب للأخلاق والقيم ومصادر مواقفهم. وفي مجال التفكير الخلقي، قدّم رؤوف الغصيني وكرمه الحسن نتائج دراسات أجرياها على اختبار "تحديد أهمية القضايا" بنصه الإنكليزي وبالصيغة العربية التي وضعاها له، مؤكدين ثبات الاختبار وصدقيته وفائدته في تقييم برامج التربية الخلقية وأثرها على تنمية التفكير الخلقي. وتناول مراد جرداق في دراسته موضوع اكتساب القيم من خلال مناهج المواد العلمية. وتخلص الدراسة إلى أن "المناهج الجديدة وأهدافها العامة في مادة العلوم تحوي قدراً كبيراً من القيم العلمية والاجتماعية والتكنولوجية، بعكس المناهج القديمة التي لم تتعاطَ إلا نادراً بموضوع القيم". وتبدو مساهمة المناهج الجديدة في تكوين القيم محدودة، إذ إن "المعطيات الميدانية تشير إلى تدني التحصيل في الكفايات ذات العلاقة بالقيم العلمية". أما موضوع التربية الدينية فكان نصيبه مقالتين، إحداهما

بحث تحليلي لجورج نحاس والثانية دراسة مضامين مجموعة من كتب التربية الدينية لطلال العتريسي. تخلص دراسة نحاس إلى "التأكيد على ضرورة تفعيل التربية الدينية بتجاوز حد المعلومة الفقهية أو اللاهوتية من أجل الوصول إلى اكتساب أفاهيم تلامس نوعية العلاقات التي لا بد أن يكتسبها الإنسان لتكون القيم عنده أبعد من مجرد تعامل سطحي، نسبي وآني مع الأخلاقيات". أما العتريسي فاعتمدت دراسته على تحليل مضمون مجموعة من كتب التعليم الديني. وأظهرت الدراسة أن هذه الكتب لا تقدم صورة سلبية عن الديانات الأخرى وأن مادة المعرفة الدينية التي يتضمنها كل من هذه الكتب تكاد تقتصر على المعتقدات الدينية الخاصة بالمجموعة الدينية التي أصدرت الكتاب. كما تبين في الوقت نفسه "وجود مساحة واسعة، مشتركة ومتشابكة بين هذه الكتب، تغطيها الموضوعات التربوية والأخلاقية والسلوكية."

وإلى جانب المقالات التحليلية والدراسات الميدانية والنظرية، أفرد قسم خاص في الكتاب لبعض التجارب العملية الهادفة إلى تنمية قيم معينة لدى الناشئة والشباب، في المدرسة وخارجها. أولى هذه التجارب يعرضها (الأب) سليم دكاش كنشاط مدرسي اختباري شارك فيه أركان الإدارة والأساتذة ومندوبو التلامذة في مدرسة سيدة الجمهور لوضع وثيقة بعنوان "وثيقة الصف للعيش والعمل معاً". واعتمد في وضع الوثيقة على قيم المسؤولية أو الالتزام، الحس النقدي، المواطنية واحترام الذات والآخرين. ثم عرضت تالية العراوي تجربتها في تدريس الفلسفة الأخلاقية في الإنترناشونال كولدج حيث عالجت مع الطلاب مواضيع فلسفية وخلقية وساعدتهم على اكتشاف القيم والدوافع التي جعلتهم يتخذون مواقف معينة إزاءها. "فكانت مادة 'فكر وقضايا' تعالج مواضيع العنف واللاعنف وحكم الإعدام والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان والضمان الاجتماعي والمجندين الأطفال والأوضاع البيئية في السجون". أما آنا منصور ورحاب مكحل فتقدمان مساهمتين عن تجربتين رائدتين لاكتساب القيم من خلال عيشها واختبارها. تعرض منصور برنامج "التربية على السلام" الذي رعته منظمة اليونيسف في لبنان على أثر انتهاء الحرب اللبنانية بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٤. وقد شمل البرنامج "تنظيم المئات من الدورات التدريبية

والنشاطات التربوية اللامدرسية المتنوعة والمخيمات الصيفية ..." وقد اعتمدت في هذه النشاطات "الأساليب والوسائل التي سمحت باختبار الحياة الجماعية بما فيها من قيم ومواقف تتصل بالعيش المشترك كالمشاركة والتداول والحوار واتخاذ القرار والتعاون في العمل والإنجاز وإدارة النزاعات بالطرق والأساليب اللاعنفية..." أما مكحل فترسم مسيرة "شباب لبنان الواحد" التي "سعت لكسر الحواجز وتحقيق التعارف بين الشباب اللبناني وتنمية الروح الوحدوية لديه، إضافة لإشراكه في التنمية والبناء وحماية البيئة وحقوق الإنسان وتطوير الممارسة الديمقراطية عملاً بقواعد الحوار الراقي". ويجري التركيز في النشاطات السنوية على قيم الحوار والعيش المشترك والسيادة الوطنية والديمقراطية والمشاركة الجماعية وحب الأرض والطبيعة.

وخاتمة الكتاب مقالة لمنير فاشه هي بمثابة سيرة ذاتية تربوية شيقة يوضح فيها قيماً عاشها وتبلورت في نفسه من خلال العمل والحوار، وتتلخص بالعمل ضمن مجموعات صغيرة، وربط المعرفة بالحياة، والأمل والمسؤولية الشخصية. ويعرض فاشه بدايات إنشاء "الملتقى التربوي العربي" الذي يسعى إلى تشجيع "أصحاب المبادرات [التربوية] الملهمة بشكل خاص، على التأمل فيما يعملونه... وتوضيح القيم التي يعملون وفقها". ومن المبادرات الرائدة التي أطلقها الملتقى "مشروع قلب الأمور" وهو مجلة أو مجلات تصدرها مجموعات من ذوي المبادرات تلتزم بمبادئ وقيم تحكم القول والفكر والعمل في المشروع. ويقول فاشه أن "الملتقى التربوي العربي" يميز بشكل واضح بين مفهومي التعليم والتعلم، وينحاز نحو التعلم "بصفته جوهر الموضوع، بل جوهر الحياة وروحها، ويكاد يكون مرادفاً لها."

إن هيئة التحرير، إذ تضع هذا الكتاب بين أيدي القراء، تأمل أن يلقى فيه كل قارئ عامل إثارة فكرية أو عملية، بحيث يكون منطلقاً لأبحاث ودراسات وتجارب جديدة في هذا المجال الهام، مجال "القيم والتعليم."

رؤوف الغصيني

تشرين الثاني / ٢٠٠١